مجلة جامعة أم القرى للعلوم الاجتماعية

الموقع الإلكتروني: https://uqu.edu.sa/jss

حملة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ على مكة المكرمة (629هـ/1232م) قراءة في روايات المصادر

Fakhr Al-Din Yusuf Ibn Sheikh Al-Shuyukh's Campaign To Mecca (629 AH/1232 AD): Read The Sources

أ.د. موضي بنت عبدالله السرحان*

قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

Prof. Mody Abdullah Al-Sarhan*

Department of History, King Saud University, Kingdom of Saudi Arabia

تاريخ التقديم: 5/10/2022 تاريخ ارسال التعديلات:8/11/2022 تاريخ القبول:29/11/2022

Received:5/10/2022 Revised:8/11/2022 Accepted: 29/11/2022

الملخص:

تميزت شخصية فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بسمات خاصة، دفعت ملوك الدولة الأيوبية بالوثوق فيه والاعتماد عليه في القيام بالمهام الجسام. يعالج هذا البحث أحد المهام التي كُلف بها فخر الدين يوسف من قبل الملك الكامل محمد، على وجه التقريب، في شهر شعبان 629هـ/مايو1232 م، وهي استعادة النفوذ الأيوبي على مكة المكرمة بعد أن فُقد هذا النفوذ على حساب الدولة الرسولية في اليمن. وتكمن مشكلة البحث في طبيعة المهمة التي كُلِّف بها فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، فعلى الرغم من نجاح مهمته، إلا أنه واجه غضباً كبيراً من الكامل محمد. فضلاً عن طبيعة القوى الداخلية في مكة المكرمة، وحساب التوازنات السياسية والعسكرية خلال هذه المرحلة، وأثر ذلك جميعه على نتائج الحملة.

الكلمات المفتاحية: الكامل محمد، فخر الدين يوسف، مكة، الأشراف، الرسوليون.

Abstract:

The personality of Fakhr al-Din Yusuf, Ibn Sheikh al-Shuyoukh, was distinguished by special traits, which prompted the kings of the Ayyubid state to trust him and rely on him to carry out important tasks. This research deals with one of the tasks assigned to Fakhr al-Din Yusuf by al-Malik al-Kamil Muhammad in the year 629 AH / January 1232 AD, which is to restore the Ayyubid influence over Makkah al-Mukarramah after this influence was lost at the expense of the Rasulid state in Yemen. The nature of the problem researching the nature of the mission that was assigned to Fakhr Al-Din Ibn Sheikh Al-Shuyoukh, a flight from the success of his mission, except that he faced anger that could be Muhammad.

Keywords: Al-Kamil Muhammad, Fakhr Al-Din Yusef, Mecca, Al-Ashraf, Rasulid.

***المؤلف المراسل:** موضي بنت عبدالله السرحان

البريد الالكتروني الرسمي: modyalsarhan@gmail.com

Doi: https://doi.org/10.54940/ss90527498

1658-8169 / © **2023** by the Authors.

Published by ***J. Umm Al-Qura Univ. Soc. Sci.***

مقدمة

لا يختلف الدارسون لحقبة التاريخ الإسلامي الوسيط على المكانة الدينية والسياسية الكبيرة التي كانت تحتلها مكة في أذهان القادة والملوك المسلمين في ذلك الوقت، وتمتلئ المصادر المعاصرة بكثير من أحداث الصراع بين هذه القوى لبسط نفوذها السياسي على الحجاز عموماً ومكة خصوصاً، لما يمثله هذا النفوذ من فائدة سياسية كبيرة، لما تضفيه من دعائم سياسية ودينية على شرعية هذه القوى أمام الرأي العام الإسلامي في هذا الوقت.

في هذا السياق سيتناول البحث جانباً من فصول هذا الصراع، والذي درات رحاه بين قوتين معاصرتين وهما الدولة الأيوبية في مصر والشام، والدولة الرسولية في اليمن، وهي الحملة العسكرية التي أرسلها السلطان الكامل محمد الأيوبي إلى مكة المكرمة في سنة 629هـ/1232م ليستعيد نفوذه هناك بعد أن سلبه مؤسس الدولة الرسولية الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول.

وقع اختيار الكامل محمد على أبرز رجاله لقيادة هذه الحملة، وهو الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ الشيوخ، الذي كان يحظى بمكانة كبيرة في الدولة الأيوبية، امتداداً لمكانة أسرته المميزة منذ تأسيس هذه الدولة. إلا أن هذه الحملة لم تأت بالنتائج المرجوة التي كان يطمح إليها السلطان الكامل، مما دفعه إلى عدم الرضا من الأحداث التي مرت بها هذه الحملة.

سوف يتناول هذا البحث أحداث هذه الحملة من حيث الدواعي السياسية والعسكرية التي أدت إلى خروجها، وأسباب اختيار فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ قائداً لها، والنتائج العسكرية والسياسية التي أفرزتها، وحقيقة الدور الذي قام به فخر الدين يوسف خلالها، وذلك جميعه انطلاقاً من روايات المصادر المعاصرة التي تعرضت لذكر أحداث الحملة.

دخول مكة المكرمة تحت النفوذ الأيوبي

أخذ الأيوبيون يتطلعون إلى فرض سيطرتهم على بلاد الحجاز منذ أن بدأ نفوذهم في مصر، لما لبلاد الحجاز من أهمية دينية كبيرة، ستنعكس على شرعية السلطة التي تفرض سيطرتها عليها، وذلك لوجود الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وما تحظى به من مكانة في نفوس المسلمين كافة. أضف إلى ذلك رغبة سلاطين الدولة الأيوبية في بسط سيطرتهم على طريق البحر الأحمر، هو أحد أهم الطرق التجارية في تلك الحقبة المهمة (ربيع، 1979م: 2–3).

لم يبذل الأيوبيون كثيراً من الجهد لكي يفرضوا سيطرتهم على بلاد الحجاز، فقد كانت الحالة السياسية فيها تعمّها الفوضى والاضطرابات منذ أواخر العهد الفاطمي، وذلك بسبب الخلافات السياسية بين الأشراف في مكة والمدينة، الذين كانوا يستغلون رغبة الخلافتين، الفاطمية في القاهرة، والعباسية في بغداد، في بسط نفوذها على الحجاز، ويساومون كل خلافة على حدة من أجل منحهم مزيداً من الأموال مقابل الاعتراف لهم بالسيادة والنفوذ، ومن ذلك مثلاً ما أعلنه شريف مكة جعفر بن محمد الحسني في سنة 358هـ/969م من إقامة الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي عند دخوله إلى مصر، ووزع الكثير من الأموال على الناس ابتهاجاً بذلك، فبعث إليه المعز كتاباً بتقليده والياً على مكة(ابن فهد، 2005م: 2/406). ورغم ذلك الابتهاج إلا أن الخطبة بمكة لم تدم طويلاً للفاطميين، بل سرعان ما أعلنت الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله في سنة 359هـ/970م، وفي العام نفسه خُطب للخليفة الفاطمي على منابر المدينة كذلك. (ابن الجوزي، 1992م: 7/53؛ ابن الأثير، 1997م: 7/297). ولا شك أن حالة سياسية كهذه جديرة بأن تولد مزيداً من التحزب والفوضى التي أدت في النهاية إلى نجاح الأيوبيين في بسط نفوذهم على بلاد الحجاز.

بدأ النفوذ الأيوبي في الحجاز عندما أرسل صلاح الدين الأيوبي في سنة 569هـ/1173م حملة عسكرية كبيرة بقيادة أخيه شمس الدولة تورانشاه [الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي واكبر منه سناً. بعثه صلاح الدين إلى اليمن فاستولى عليه وحكمه. توفي بالإسكندرية سنة 576هـ. (ابن خلكان، د.ت: 1/306–307)] إلى اليمن للسيطرة عليها، وكان من بين أهداف هذه الحملة حماية الأماكن المقدسة من التهديد الصليبي من خلال تأمين البحر الأحمر (الكلاس، 2013م: 523–558). وعندما مرّ تورانشاه بالحملة على مكة، طاف بالكعبة المشرفة، واستقبله فيها أمير مكة الشريف عيسى بن قُلَيْتَة [هو عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسني، تولى إمارة مكة في سنة 556هـ/1161م بعد ابن أخيه قاسم بن هاشم بن فليتة ، وكانت وفاته في شهر شعبان عام 570هـ/فبراير 1175م. (الفاسي، 1986م: 6/465–470)] ، والذي اعترف له بالسيادة على مكة، فثبته تورانشاه على شرافتها (ابن شداد، 2005م: 46؛ ابن واصل، د.ت/1240–241؛ ابن الجوزي، 1371هـ/1952م: 8/300–301).

استمر النفوذ الأيوبي بمكة، إذ كان يتدخل الملوك الأيوبيين أو نوابهم لتهدئة الصراعات التي كانت تقع بين الفينة والأخرى بين الأشراف هناك. فيروي الفاسي أن شمس الدولة تورانشاه قد توسط للصلح بين مُكَثِّر بن عيسى [هو مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسني، تولى إمرة مكة لسنين طويلة مع أخيه داود بن عيسى، وبنهاية حكمه انتهى حكم فرع الهواشم لإمارة مكة في سنة 597هـ/1200م. (الفاسي، 1986: 4/354–355)]

وأخوه داوود في سنة 571هـ/1175م، وتم الصلح بينهما، وكان ذلك عند مرور تورانشاه على مكة أثناء قدومه من اليمن في طريقه إلى بلاد الشام (الفاسي، 1986: 4/354–355).

وقد وقع الأمر نفسه في سنة 579هـ/1184م عندما دخل الملك العزيز طُغْتكين بن أيوب [سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي أخو صلاح الدين الأيوبي. بعثه صلاح الدين إلى اليمن 577هـ/1181م بعد رجوع أخيهما تورانشاه منها، وكانت وفاته في سنة 593هـ/1196م. (ابن خلكان، د.ت: 2/ 523–525)] مكة وهو في طريقه إلى اليمن، حيث اطمأن على الأوضاع السائدة فيها، وقد ذكر ابن جبير الذي كان موجوداً في مكة حينها أن الأمير طُغْتكين خلع عليه خلعتين قبل خروجه إلى اليمن، كما يذكر أن الخطبة في مكة كانت للخليفة العباسي الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء (577–623هـ/1180–1225م)، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى، ولصلاح الدين الأيوبي(ابن جبير، د.ت: 112–114).

ولكن يبدو أن السلطان صلاح الدين لم يكن يرغب في التدخل مباشرة في الشؤون الداخلية لبلاد الحجاز، وفضّل أن يكتفي بالإجراءات التي تكفل تحقيق الأمن والعدالة لأهلها وللحجاج القادمين عليها. فضلاً عن توفير الحماية اللازمة للحجاز وسواحله على البحر الأحمر من الهجمات الصليبية. وقد بدى ذلك جلياً عندما تصدى صلاح الدين للحملة الصليبية التي قادها أرناط (رينالد دي شاتيون) أمير إمارة الكرك الصليبية، الذي اعتاد مهاجمة قوافل الحجاج إلى بيت الله الحرام، فضلا عن القوافل التجارية، التي اشتهر بسلبه لها وأسر نسائها ورجالها (رنسيمان ، 1986: 696). ثم بدأ يتطلع في خطوة أكثر جرأة إلى مهاجمة الأماكن المقدسة في الحجاز، وذلك بعد تجهيزه حملة في صيف سنة 577هـ/1181م متوجهاً بها إلى الحجاز عبر البحر الأحمر، متناسياً الهدنة القائمة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصلبية (محمود، 1973: 109–110).

باءت هذه الحملة بالفشل، لعدم تقدير أرناط للظروف الجوية في البحر الأحمر، فما أن وصلت الحملة إلى واحة تيْمَاء [بلد بين الشام ووادي القرى، على طريق الحج الشامي. (الحموي، 1994م: 1/67)] حتى توقفت عن الحركة لشدة الحرارة وقلة الماء، فضلاً عن الضغط العسكري الذي قام به عز الدين فروخ شاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق عند محاصرة الكرك ونهبها، مما اضطر أرناط إلى العودة بعد أن تمكن من نهب قافلة تجارية ضخمة كانت متجهة من دمشق إلى مكة (ابن واصل، د.ت: 2/101–102؛ المقريزي، 1994: 1/78–79).

لم يكتف أرناط بهذه الحملة، فقد أعد حملة أخرى مستدركاً عامل حالة الجو، ففي نهاية عام 578هـ/1182م أعد حملة هدف منها الدخول إلى العمق في مياه البحر الأحمر، فحمل أجزاء السفن مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة، ثم ركب أجزاءها وشحنها بالرجال والعتاد، ثم هاجم جزيرة أَيْلَة [مدينة على ساحل البحر الأحمر من ناحية الشام، وقيل أنها آخر الحجاز وأول الشام (الحموي، 1994: 1/292)] ، وسار بمحاذاة الساحل الغربي للبحر الأحمر، مما أثار الرعب في قلوب الأهالي، ويصف ابن الأثير هذا المشهد بقوله: " فإنهم ساروا نحو عَيْذَاب [بليدة تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي مرسى المراكب الآتية من عدن إلى صعيد مصر(الحموي، 1994م: 4/171)] ، وأفسدوا في السواحل،ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط، لا تاجراً ولا محارباً " (ابن الأثير، 1997: 9/468؛ ابن واصل، د.ت: 2/127–129).

تمكنت حملة أرناط من الهجوم على ميناء عيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر، والاعتداء على عدد من السفن التجارية القادمة من عدن وجدة في عرض البحر، وقد عاصر الرحالة ابن جبير هذه الأحداث إذ أشار إلى أن الصليبيين قد استولوا على مركبين لتجار من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة بميناء عيذاب كانت معدة لميرة مكة والمدينة (ابن جبير، د.ت: 30–31). فما كان من صلاح الدين إلا أن أمر أخيه سيف الدين العادل، نائبه على مصر، بتجهيز أسطول بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب، ليباغت مؤخرة الأسطول الصليبي، وتمكن بالفعل القائد حسام الدين لؤلؤ من تصفية الجيوب الصليبية في مياه البحر الأحمر، وأسر عدد كبير من أفراد الحملة، الذي أمر صلاح الدين بقتلهم ليصبحوا مثلاً لكل من يتجرأ على حرم الأماكن المقدسة للمسلمين (ابن الأثير، 1997: 9/468–469؛ ابن واصل، د.ت: 2/127–129؛ أبو شامة، 2002م: 2/35؛ العلوي، 2020م: 9–10).

وهكذا فقد ضمنت الدولة الأيوبية حماية بلاد الحجاز من الأخطار الخارجية والنزاعات الداخلية، وكان هدفها من ذلك تأمين موسم الحج، والظهور بمظهر الحامي للحرمين الشريفين أمام ما يهددهما من أخطار، مما يدعم شرعية الدولة الأيوبية أمام الرأي العام الإسلامي. وقد استمرت سياسة سلاطين الدولة الأيوبية تجاه الحجاز بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، فنذكر على سبيل المثال ما قام به الملك المسعود أقسيس [الملك المسعود يوسف بن السلطان الكامل محمد والملقب بأقسيس ، وقد حكم اليمن في سنة 612هـ/1215م، وانتزع مكة من الشريف حسن بن قتادة عام 619هـ/1222م، وإليه تنسب الدراهم المسعودية التي كانت شائعة الاستعمال في مكة (ابن

خلكان، د.ت: 5: 82، 83–84)] في سنة 611هـ/1215م، عندما دخل مكة وهو في طريقه إلى اليمن والياً عليها من قبل والده السلطان الكامل محمد، فأنعم على شريف مكة بألف دينار نقداً، وقماش قيمته ألف دينار، كما وزع ألف دينار على أهل مكة (ابن خلكان، د.ت: 282؛ الفاسي، 1986: 7/ 492).

حاول الملك المسعود أن يشرف مباشرة على إدارة مكة، واتخذ عدة إجراءات يهدف منها استمالة أهل مكة إليه، وتمكن من تحسين الحالة الاقتصادية إلى جانب استتباب الأمن، وفرض النفوذ المباشر للدولة الأيوبية على مكة لفترة قصيرة، حيث ضرب باسمه الدنانير والدراهم بمكة وهي التي عرفت بالمسعودية . (الفاسي، 1986: 7/493؛ ابن فهد: 2/382؛ ابن المجاور، د.ت: 1/12). وكان خطيب المسجد الحرام يدعو للسلطان الكامل واصفاً مُلكه بقوله: '' صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها... سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين '' (ابن خلكان، د.ت: 5/82).

توفي الملك المسعود أقسيس بمكة وهو في طريقه إلى دمشق في سنة 626هـ/1229م (المقريزي، 1994: 1/237)، فقرر والده الملك الكامل محمد إرسال حملة إلى مكة– لضمان بقائها تحت النفوذ الأيوبي– بقيادة الأمير شجاع الدين أبا بكر بن عمر الطُغتكيني الكاملي والمعروف بطغتكين الكاملي [شجاع الدين طغتكين بن عبدالله الكاملي ، أحد أمراء مكة المكرمة من قبل السلطان الكامل محمد الأيوبي. (الفاسي، 1986: 4/295؛ المقريزي، 1994: 1/244)] ، وكان معه حوالي ألف فارس، كما اتبع سياسة المهادنة مع أهل مكة، حيث أنفق عليهم الكثير من الأموال (العصامي، د.ت: 4/216).

كان ينوب على اليمن في أثناء غياب الملك المسعود أقسيس في سنة 626هـ/1229م قائده نور الدين عمر بن علي بن رسول [الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، أحد القادة الأيوبيين، وكان أحد قادة الملك المسعود الأيوبي حاكم اليمن، ثم بعد وفاة هذا الأخير بمكة في سنة 626هـ/1228–1229م استقل نور الدين بن رسول باليمن وأسس الدولة الرسولية وعاصمتها تعز (الفاسي، 1986: 6/339–349)] ، الذي ما أن بلغه وفاة الملك المسعود في مكة، حتى قرر الاستقلال باليمن عن الدولة الأيوبية تدريجياً، وأمر في سنة 630هـ/1232م بأن يخطب له على منابر اليمن، وتضرب السّكة باسمه، ولقب نفسه بالملك المنصور (الخزرجي، 1986م: 1/51؛ الفاسي، 1986: 6/341–342).

ومنذ ذلك الحين وأصبحت الدولة الرسولية (626–858هـ/1229–1454م) ندّاً يعترض نفوذ الدولة الأيوبية في الحجاز، لذا ستدور رحى الصراع بين الطرفين حول فرض النفوذ بمكة المكرمة، وقد استدعى ذلك إرسال الحملات الأيوبية تباعًا لفرض هذا النفوذ والتصدي للمطامع الرسولية. وفي هذا السياق أرسل السلطان الكامل محمد حملة بقيادة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ إلى مكة في شهر شعبان سنة 629هـ/يونيو 1232م، على وجه التقريب.

التعريف بفخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ومكانته السياسية في الدولة الأيوبية

تنسب أسرة شيخ الشيوخ [شيخ الشيوخ هو لقب ديني يطلق من يتولى الإشراف على مؤسسات الطرق الصوفية كالزوايا والربط والخوانق (القلقشندي، 1431هـ: 4/200؛ المقريزي، 2003م، 2: 727–729)] إلى عماد الدين عمر بن حَمُّوية [تنسب أُسرة بني حَمُّوية إلى أسرة صوفية فارسية، وهم فقهاء على المذهب الشافعي، وينسبون إلى إحدى قرى جُوَين في إقليم خراسان. (المنذري، د.ت: 3: 15–16)] ، الذي ولاه نور الدين محمود زنكي مشيخة خانقاه دمشق في سنة 563هـ/1167م، وفوّض إليه إدارة الرّبُط والزوايا والأوقاف في بلاد الشام (ابن الجوزي، 1952: 8/272؛ ابن واصل، د.ت: 3: 257). فاكتسب بذلك لقب شيخ الشيوخ، وهو اللقب الذي عُرفت به هذه الأسرة على مدار تاريخها، وأخذ أفرادها يتناوبون على هذه الوظيفة باستثناء فخر الدين يوسف الذي لم يتولاها طوال حياته(أبو شامة، 2002م: 125؛ المقريزي، 2003م: 33–34).

عملت أسرة شيخ الشيوخ في خدمة سلاطين الدولة الأيوبية منذ عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي عهد إلى صدر الدين محمد ابن عماد الدين عمر بتولي مشيخة الصوفية بمصر [استخدم السلاطين الأيوبيين في مصر المؤسسات الصوفية ونخبها، ومن بينها مؤسسة شيخ الشيوخ، من أجل الترويج للشرعية السياسية والمذهبية عند العامة، وذلك مقابل استفادة الصوفية من التحالف مع النخب السياسية الأيوبية مادياً ومعنوياً، عن طريق بناء الخانقاوات والمدارس والأربطة لممارسة رجال الطرق الصوفية لطقوسهم، ونشر التصوف السني بين عامة المصريين(العنزي، 2021م: 162–163)] ، بعد أن كان متولياً لها لمدة كبيرة في دمشق خلفاً لأبيه عماد الدين عمر بن حمويه، كما أسند إليه صلاح الدين الإشراف على المدرسة الصلاحية لما رآه فيه من سعة للعلم والفقه وشدة الصلاح والتقوى (الأصفهاني، 2004: 301–302؛ أبو شامة، 2002: 4/172).

بعد وفاة صدر الدين محمد ترك أربعة أبناء وهم: عماد الدين عمر، كمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن، وفخر الدين يوسف، وقد ورثوا عن أبيهم سعة العلم والمعرفة وشدة الصلاح والتقوى، فقرّبهم

الملوك الأيوبيون منهم، وأسندوا إليهم الكثير من الأعمال، وكانوا محل ثقتهم ومعيّنهم، وبلغ ذروة مجدهم خلال عهد السلطان العادل وابنه الكامل، وفي هذا يقول ابن واصل: " إن هؤلاء الأربعة كانوا أخص الناس بخدمة الكامل، وحازوا في زمانه مكانة مرموقة، حيث كان يعد أخًا لهم في الرضاعة عن طريق أمهم ابنة القاضي شهاب الدين ابن أبي عصرون " (ابن واصل، دت : 5/170) [وابن عصرون هو شهاب الدين عبدالسلام بن المطهر بن عبدالله بن عصرون الحلبي، فقيه عابد زاهد، توفي في دمشق في سنة 632هـ/1243م (ابن الجوزي، 1952م، 8/692-694)] ، وقد عرفتهم المصادر بأبناء الشيخ أو أبناء شيخ الشيوخ. (أبو الفدا، 1997م: 2/221-222؛ ابن الوردي ، 1970م: 3/208).

تولى الابن الأول عماد الدين عمر منصب شيخ الشيوخ في مصر من قبل السلطان الكامل محمد سنة 617هـ/1220م، وذلك خلفاً لوالده صدر الدين الذي مات في العام نفسه، كما تولى أخوه كمال الدين أحمد المدرسة الشافعية في مصر وتولى فيها منصب شيخ الشيوخ حتى وفاته في سنة 640هـ/1242م (الذهبي، 1988م: 33/403)، أما الابن الأصغر وهو معين الدين حسن، فقد تولى منصب شيخ الشيوخ في مصر بعد وفاة إخوته، وعهد إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب الإشراف على المشهد الحسيني (المقريزي، 2003: 3/98).

أما فخر الدين يوسف، فهو أشهر أولاد صدر الدين محمد ابن شيخ الشيوخ على الإطلاق، ويكنى بأبي بكر، وبأبي الفضل، وبأبي المظفر، وكانت ولادته في دمشق سنة 582هـ/1186م، ونشأ بها وتلقى تعليمه وتربيته فيها، وكان قد نال منزلة كبيرة عند الكامل محمد، فأولاه ثقته، ولم يكن يخفي عنه سرًا، واعتمد عليه في مختلف الشؤون السياسية والعسكرية بدولته (السبكي، 1992م: 8/363؛ الصفدي، 1997: 29/320).

أفاضت المصادر في وصف شخصية فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، فقد نُعت برجاحة العقل، والرئاسة، وحسن التدبير، وكمال السؤدد، والفضل، والأدب، والجود، والكرم، والجدارة بالملك، والشجاعة والفروسية، والهيبة والوقار، وكان محبوباً من الناس، العام منهم والخاص (الصفدي، 1997: 29/317-318؛ الكتبي، د.ت: 4/366؛ اليونيني ، 1992: 2/214-215). ولم يصل أحد من إخوته إلى ما وصل إليه من علو المكانة والرتبة والمنزلة، فكان يقف على بابه، ويركب في خدمته، سبعون أميراً سوى المماليك والخدم (السبكي، 1992: 8/364).

وتجدر الإشارة إلى أن نظرة الكامل محمد إلى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ لم تقتصر على كونه عالم دين أو فقيه، وإنما كان يراه أميراً وسياسياً محنكاً، ويدل على ذلك ما عمد إليه من إلباسه الشربوش [الشربوش هو قلنسوة طويلة أعجمية يلبسها الأمراء، وهي الشارة التي يتميزون بها، ولا يرتديها رجال العلم والدين، مثل القضاة والكتاب وغيرهم، وظلت تستخدم في مصر حتى ألغي استعمالها في زمن المماليك البرجية. (إبراهيم، 1423هـ: 262)] ، بعد أن كان يلبس العمامة [كانت العمامة لباس العلماء والقضاة والفقهاء ورجال الجهاز الإداري، ولذا أطلق عليهم المعممون، إشارة إلى لبسهم للعمامة تمييزاً لهم عن الأمراء الذين يرتدون الشربوش (الصفدي، 1997: 29/318؛ اليونيني ، 1992: 2/215)] ، وفي ذلك إشارة إلى المواهب والصفات التي كان يتسم بها فخر الدين من ناحية، وإلى طبيعة المهام التي رأى الكامل محمد أن يكلفه بها من ناحية أخرى.

أسباب اختيار فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ لرئاسة الحملة

أسند السلطان الكامل الأيوبي إلى فخر الدين ابن شيخ الشيوخ مهمة استعادة مكة المكرمة بعد أن سيطر عليها الرسوليون في اليمن عقب إرسال الملك المنصور الرسولي حملة بقيادة راجح بن قتادة [راجح بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني المكي، أمير مكة المكرمة، توفي سنة 654هـ/1256م. (أبو الفدا، 1997: 2/181)] ، إلى مكة واستولى عليها في شهر ربيع الآخر سنة 629هـ/فبراير 1232 م(الفاسي، 1986: 5/65).

والواقع أن اختيار الملك الكامل محمد لفخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ لهذه المهمة بُني على عدة عوامل أبرزها المكانة التي كان يتمتع بها فخر الدين في الدولة عموماً، وعند الكامل محمد بخاصة، فضلاً عن أدواره السياسية والعسكرية المشهودة التي قام بها خلال الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة، فقد أشار سِبطُ ابن الجوزي [كان سبط ابن الجوزي مقرباً من ملوك الدولة الأيوبية، وحظي عندهم بمكانة رفيعة جعل روايته لأحداث هذه الفترة بالغة الأهمية، مما سينعكس لاشك على روايته لأخبار فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ. للمزيد عن سِبط ابن الجوزي (الرويضي ، 2009م: 11-53)] إلى أن فخر الدين كان رفيقاً للسلطان الكامل في جميع أحداث الحملة الخامسة، وكان يُشير عليه بكثير من الآراء السديدة (اليونيني ، 1992: 8/ 706) [وللتوسع عن الرواية التي نقلها ابن تغري بردي بتوسع عن السبط. (ابن تغري بردي، 1991: 6/216)] ، أما في الحملة الصليبية السادسة، فقد تولى عمل الترتيبات النهائية الخاصة بمعاهدة يافا سنة 626هـ/1229م بين السلطان الكامل محمد، والإمبراطور فردريك الثاني، حيث كان المبعوث السياسي الخاص للكامل، وقد أعجب الإمبراطور بفخر

الدين يوسف، وتوطَّدت بينهما صداقة كبيرة، لعل مما يدل على ذلك نص المحاورة بينها، وقد أورد ابن واصل جانباً منها فيقول: " وبلغني أنه لما كان الأنبرطور بعكا قال للأمير فخر الدين بن الشيخ – رحمه الله – أخبرني عن الخليفة الذى لكم ما أصله؟ فقال فخر الدين: هو ابن عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أخذ الخلافة عن أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرة في بيت النبوة، لا تخرج منهم، فقال الأنبرطور : ما أحسن هذا، لكن هؤلاء القليلوا العقول –يعنى الفرنج– يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب، جاهلا فَدْماً [الفَدْم من الناس العيي عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم، وهو أيضاً الغليظ الثمين الأحمق الجافي. (ابن واصل، د.ت: 4/251، هـ2)] ، يجعلونه خليفة عليهم، قائمًا مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم، فهو أحق الناس بمرتبته " (ابن واصل، د.ت: 4/251).

كما أن هناك دلالة مهمة لاختيار السلطان الكامل محمد لفخر الدين ابن شيخ الشيوخ ليتولى رئاسة حملته إلى مكة، تكمن هذه الدلالة في قيمة ومكانة مكة المكرمة في السياسة الأيوبية، حيث أسند قيادة حملتها إلى أحد أكبر رجال الدولة مكانة وحنكة وقرباً من السلطان حينها، والتي أسندت إليه مهاماً سياسية وعسكرية ودبلوماسية جسام، ولا شك أنه يمتلك من المهارات الخبرات ما يؤهله لأن يعيد مكة إلى النفوذ الأيوبي كما كانت قبل قيام الدولة الرسولية.

أحداث الحملة وآثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية

قبل الحديث عن تفاصيل الحملة الأيوبية إلى مكة، نورد بعضاً من الأحداث المتعلقة بتمرد نور الدين عمر بن علي بن رسول على الدولة الأيوبية، فبعد أن علم بوفاة سيده الملك المسعود أقسيس أثناء مروره بمكة إلى الشام في سنة 626هـ/1229م، وكان حينها متولياً لليمن نيابة عنه، قرر أخذ عدة خطوات قبل إعلانه الانفراد باليمن عن حكم الدولة الأيوبية، من أبرزها إرسال حملة لضم مكة وإعلان سيادته عليها ليضفي شرعية دينية وسياسية على دولته الناشئة بوصفه صاحب السيادة على الحرم الشريف، فيجد تعاطفاً من الرأي العام الإسلامي عند إعلانه الاستقلال عن الدولة الأيوبية، وهي الدولة الحاملة لواء الجهاد ضد الصليبيين.

شرع نور الدين عمر بن علي بن رسول في عمل هذه الخطوة الاستباقية لإعلان استقلاله باليمن عن حكم الدولة الأيوبية، فأرسل إلى مكة في شهر ربيع الآخر سنة 629هـ/فبراير 1232م حملة عسكرية بقيادة شخص اسمه ابن عبدان [ابن " عبدان " أو ابن " عيدان " ، ورد في المصادر بالباء الموحدة أحياناً، وأحياناً أخرى بالياء المثناة] ، وبصحبته راجح بن قتادة، وهو أحد أمراء الأشراف المتصارعين على الحكم في مكة (الفاسي، 1986: 6/341–342) [مما يجدر الإشارة إليه أن المؤرخ المكي الشهير النجم عمر ابن فهد، المتوفى سنة 885هـ، قد أغفل الحديث عما جرى في سنة 629هـ/1232م من أحداث، فكانت سنة فارغة في كتابه، سواء قدوم الحملة الرسولية مع ابن عبدان وراجح بن قتادة إلى مكة وطرد نائبها الأيوبي الأمير شجاع الدين الطغتكي ، أو إرسال الكامل محمد حملة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ إلى مكة لإعادتها لنفوذ الدولة الأيوبية. وعندما روى ابن فهد أحداث سنة 630هـ، أورد خلطاً في ترتيب الأحداث وسنوات وقوعها، مقارنة مع المصادر الأخرى. (ابن فهد، 1404هـ: 4/49–50)] ، فما أن علم الأمير شجاع الدين طغتكين ، نائب السلطان الكامل محمد على مكة، بهذه الحملة حتى أرسل إلى أهل مكة وأعيانها لضمان ولائهم وطلب معونتهم (ابن حاتم، 1973م: 2/204)، إلا أن راجح بن قتادة تمكن من استمالة أهل مكة إليه وإلى الجانب اليمني، مُذكّراً إياهم بحسن معاملة نور الدين عمر بن رسول أثناء ولايته على مكة نيابة عن الملك المسعود في سنة 620هـ/1223م (الفاسي، 1986م: 2/283، 4/376).

عندما فوجئ طغتكين بتخلي أهل مكة عن تأييدهم له وللدولة الأيوبية، وكان بصحبته حامية مكونة من مائتين من الفرسان، آثر الانسحاب إلى يَنْبع [ينبع ويقال الينبع والينبوع، ولعل هذه التسمية كانت بسبب كثرة ينابيعها، فقد أحصي بها مائة وسبعون عيناً، وتبعد عن المدينة المنورة سبع مراحل، أي حوالي 150 كيلو متراً، ويقصد بها هنا ينبع النخل، أما ينبع البحر فهي تبعد عن الأخيرة حوالي عشرة كيلو مترات. (الحموي، 1994، 5: 449–450؛ البلادي، 1984م: 10/ 36–40)] ، والتي كان بها حامية عسكرية، وذخائر وغلة ومخازن تابعة للملك الكامل(الخزرجي، 1986: 1/49)، وأرسل إلى الكامل يخبره بالأمر، فما كان من الأخير حتى جهز فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بجيش كبير إلى الحجاز، كما وجه أوامره إلى نائبيه على ينبع والمدينة المنورة بالانضمام إلى الحملة وتيسير سبلها، وهما الشريف أبا سعد الحسن بن علي بن قتادة [أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسني، أمير مكة وينبع. كان أمير ينبع، حيث حكم مكة من قبل السلطان الرسولي محمد بن أحمد بن المسيب اليمني عام 647هـ/1249م، وحكمها أربع سنين، وقتل عام 651هـ/1253م. (الفاسي، 1986م: 4/ 160–163)] أمير ينبع (الفاسي، 1986: 2/284)، والشريف شيحة أمير المدينة [أبو عيسى شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة، نال الإمارة عقب علمه بمقتل قاسم بن جماز بن قاسم بن مهنا

الحسيني على يد قبيلة بني لام في سنة 624هـ/1226م، فعاد مسرعاً إلى المدينة وسيطر عليها وحكمها واستمر حكمها في نسله. كان مقتله على يد بني لام أثناء رحلة له إلى العراق عام 647هـ/1249م (الفاسي، 1986: 5/22–24). ويُشير تعاون أمير المدينة مع حملة فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى قدر التعاون الذي كان قائماً حينها بين المدينة النبوية والقاهرة، حيث أن الأشراف الحسينيين في المدينة قد عملوا على تقوية علاقاتهم مع الدولة الأيوبية في هذه المرحلة] ، وما أن وصلت الحملة حتى تمكنت من الاستيلاء على مكة المكرمة في صفر 630هـ/ديسمبر 1232م، ودخلها فخر الدين ابن شيخ الشيوخ وبصحبته الأمير طغتكين ، واستحلف أهلها للملك الكامل(ابن حاتم، 1973: 2/205–206؛ الفاسي، 1986: 2/284).

بيد أن السلطان الكامل لم يتلق هذا الخبر بالترحاب، بل انزعج من تصرف فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ وتجرّئه على مخالفة أوامره بالزحف على مكة دون إشعار سابق للسلطان، وفي ذلك يذكر أبو الفضائل ابن نظيف الحموي عن السلطان الكامل قوله: " نحن أمرناه بأن يصل إلى الينبع لا غير، من أمره بأخذ مكة " (ابن نظيف، 1981م: 235).

والواقع أن تصرف ابن شيخ الشيوخ قد يُبَرر بالانشغال الكبير الذي كان فيه السلطان بمجابهة الهجمات المغولية على قلعة خِلاط بأرض الجزيرة [خِلاط: بلدة عامرة في الجزيرة الفراتية (الحموي، 1994: 2/381)] ، فضلا عن أن أحداث الحملة قد تسارعت بشكل مفاجئ في وقت يتربص فيه المنصور الرسولي مستعيناً بتأييد أهل مكة له وبعض أشرافها. إضافة عن التجاوزات التي قد وقعت من بعض جنود الحملة التابعين للأمير طغتكين نائب مكة، حيث أصدر أوامره لجنوده باستباحة المدينة لمدة ثلاثة أيام انتقاماً من أهلها المؤيدين للملك المنصور الرسولي، فانتشر القتل والنهب في مكة، حتى جاء الفقهاء والمجاورون إلى المسجد الحرام، ودخلوا على فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وخوفوه من عقاب الله عز وجل، فأخذ ينادي بالأمان، ويكف طغتكين وجنوده عن هذه الأعمال(ابن حاتم، 1973: 2/205–206).

وتعد حادثة استباحة الجند الأيوبي مكة عند دخولهم لها حادثة مؤلمة، وقد دلّت على غضب طغتكين من نكوصهم لعهدهم معه، كما تبرر غضب الكامل محمد على فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ لسماحه بوقوع مثل هذه التصرفات، وهو المسؤول الأول عن هذه الحملة، وفي ذلك يقول الفاسي:

" وجدت في تاريخ لبعض العصريين، أن طغتكين أنفق في أهل مكة نفقة جيدة، وحلّفهم ووثق منهم، لما ولي راجح بن قتادة، وابن عبدان الاستيلاء على مكة، بإنفاذ الملك المنصور صاحب اليمن إلى مكة، في سنة تسع وعشرين وستمائة فراسل راجح بن قتادة أهل مكة، فمال رؤساءهم إليه، فلما أحس بذلك طغتكين ، خاف على نفسه، فخرج هاربا فيمن معه، وكان معه مائتا فارس، وقصد نخلة، وتوجه منها إلى ينبع، وكان بها رُتبة الملك الكامل وزردخانة وغله، وعرف الملك الكامل الخبر، فجهز عسكرًا كثيفا، وقدم عليهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ، فوصلوا مكة وحاصروا راجحاً وابن عبدان وقاتلوهم فقتل ابن عبدان، وانكسر أهل مكة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأظهر طغتكين حقده عليهم، ونهب مكة ثلاثة أيام، وأخاف أهلها خوفا شديداً. فلما علم الملك بما فعل، غضب عليه وعزله، واستدعاه إلى مصر، وأرسل إلى مكة أميراً غيره، يقال له ابن مجلي، فوصل إلى مكة في سنة ثلاثين " (الفاسي، 1968: 4/ 296–297؛ الخزرجي، 1986: 1/55).

ورغم غضب السلطان الكامل، فقد استمر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ في مكة حتى بداية سنة 630هـ/نهاية سنة 1232م، يدير شؤونها، ويحسن من أحوال أهلها، ويستحلفهم للسلطان الكامل محمد الأيوبي (الفاسي، 1986: 4/375؛ النويري، 1994م: 29/190).

ويفهم من حديث الدواداري أن راجح بن قتادة قد أعاد الكرة مرة أخرى على مكة أثناء وجود فخر الدين يوسف بها، وكان بصحبته هذه المرة عسكراً كثيفاً، عدتهم ستمائة فارس وأربعة آلاف راجل، بالإضافة إلى من صحبهم من عربان الحجاز، ولما تحقق فخر الدين من ذلك، قرر الخروج من مكة وتحصن بينع، مما مهد الطريق أمام راجح ليدخل مكة سلماً هو ومن معه من العسكر اليمني وذلك في شهر صفر سنة 630هـ/ديسمبر 1232م [دلّ خروج فخر الدين يوسف من مكة سريعاً، ودخول الحملة الرسولية سلماً إليها في صفر سنة 630هـ، على حكمته لعدم ثقته في وقوف أهل مكة بجانبه في هذا الصراع، خاصة بعد استيائهم من سلوك جنود طغتكين الذين ارتكبوا الكثير من الفظائع معهم، فضلاً عن وجود الشريف راجح بن قتادة على رأس الحملة، مما يضمن ولاء أهل مكة له في هذا الصراع.(السالمي، 2010م: 367–368)] . مما دفع الكامل محمد إلى إرسال عسكراً من مصر بقيادة الأمير علاء الدين أقسنقر الزاهد، متوجهاً إلى مكة، فالتقى في ينبع بفخر الدين وطغتكين وتوجهوا جميعاً إلى مكة فخرج منها راجح عادت مكة مرة أخرى إلى حوزة الدولة الأيوبية(الدواداري ، 1972م: 7/309–310).

حمّل الكامل الأيوبي مسؤولية ما وقع في مكة من تجاوزات أثناء الحملة إلى فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، ولذا قد أبدى انزعاجه مما حدث كما جاء في رواية ابن نظيف الحموي(ابن نظيف، 1981: 235)، وقرر عزل الأمير طغتكين عن نيابة مكة، وأسل نائباً آخر

هو الأمير ابن مجلي، الذي وصل إلى مكة في آخر سنة 630هـ/ 1233م(السلوك، 1994، 2/249). ولا شك أن غضب الملك الكامل من الأمير طغتكين لتصرفه المشين مع أهل مكة ينم عن مخاوفه من أن هذه التصرفات غير اللائقة سوف تضر بالسيادة الأيوبية في الحجاز(البركاتي ، 1991م، ص155).

وفي ملاحظة وردت في رواية تقي الدين الفاسي بكتابه شفاء الغرام تشير إلى تشكّكه في تولي فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ لقيادة هذه الحملة، فيقول: " بعث [نور الدين عمر بن علي الرسولي] إلى مكة جيشاً معهم راجح بن قتادة الحسني، فأخرجه من مكة متوليها للملك الكامل طغتكين ، وهرب إلى ينبع، وعرف الملك الكامل بذلك، فجهز إليه جيشاً كثيفاً، مقدمهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ علي –على ما قيل... " (الفاسي، 2000م: 2/238–239) فعبارة " على ما قيل " تفيد التضعيف. وكرر الفاسي الرواية مع شيء من التفصيل في كتابه العقد الثمين فيقول: " وقيل: إن فخر الدين بن الشيخ على، كان على مكة لما وصلها جيش المنصور في سنة تسع وعشرين. ثم وليها جيش المنصور مع راجح بغير قتال في صفر سنة ثلاثين. ثم وليها في آخرها عسكر الكامل، وأقام بها أمير من جهة الكامل يقال له ابن مجلي " (الفاسي، 1986م: 1/330). ويمكن إرجاع هذا التردد في رواية الفاسي إلى تشابه الأحداث وتكرارها خلال فترة قصيرة، وهي الفترة الممتدة من شهر ربيع الآخر 629هـ/ فبراير 1232م حتى شهر صفر 630هـ/ديسمبر 1232، فخلال هذه المدة القصيرة قد حدث تبادل في الأدوار والنفوذ في مكة بين الدولتين الأيوبية والرسولية لمرتين متتاليتين، ففي شهر رمضان 629هـ/يوليو 1232م تمكن فخر الدين ومن معه من دخول مكة واستتباب الأمن فيها لصالح الأيوبيين بعد هزيمة راجح بن قتادة ومن بصحبته ممن العسكر اليمني، وما جاء شهر صفر 630هـ/ ديسمبر 1232م حتى عاد راجح بن قتادة بعسكر كثيف ودخل مكة سلماً بعد انسحاب فخر الدين ابن شيخ الشيوخ منها إلى ينبع منتظراً الدعم من الكامل محمد، الذي أرسله له بالفعل كما روى الدواداري على يد الأمير علاء الدين أقسنقر الزاهد، وما أشرفت سنة 630هـ/1233م على الانتهاء حتى دخلت مكة تحت النفوذ الأيوبي وعُين عليها الأمير ابن مجلي.

تركت الحملة آثاراً كبيرة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي بمكة المكرمة، فقد ساءت سمعة الدولة الأيوبية بين أهل مكة، وكثيراً ما فضّلوا الانضواء تحت نفوذ الدولة الرسولية نكاية في الدولة الأيوبية، مما أطال أمد الصراع بين الطرفين على فرض النفوذ هناك، رغم محاولات الملك الكامل استرضاء أهل مكة بعد الأحداث العنيفة التي قام بها طغتكين الكاملي ، فقام بعزله واستبداله بالأمير ابن مجلي، إلا أن أهل مكة ظلّوا يتذكرون استباحة المدينة المقدسة ونهبها لمدة ثلاثة أيام من قبل الحامية الأيوبية. الأمر ذاته وقع على الجانب الاقتصادي، فقد أشارت المصادر إلى وقوع الغلاء في مكة بعد هذه الحملات، فضلاً عن تأثر موسم الحج، فلم تخرج رُكُب الحج لهذا العام(الفاسي، 2000: 2/238–239). وقد علق ابن الجزري على آثار هذه الحملة بقوله: " انكسر أهل مكة، واستولى عليها طغتكين ، وقتل منهم مقتلة عظيمة عند الدَّرب، ونهبت مكة ثلاثة أيام، وأُخيف أهْلُها خوفاً شديداً، وتُعرف هذه السنة عند العرب بسنة الدَّرْب " (الجَزِيري، 2002م: 1/371–372).

الخاتمة

بعد استعراض أحداث حملة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ على مكة سنة 629هـ/1232م أمكن الوصول إلى عدة نتائج من أهمها:

- كانت الحملات العسكرية المتتابعة للدولة الأيوبية أحد الوسائل المهمة التي اتبعتها لفرض نفوذها على مكة خصوصاً، وعلى الحجاز على وجه العموم، لما لذلك من أهمية في كسب الشرعية الدينية والسياسية أمام الرأي العام الإسلامي.
- دلّ اختيار السلطان الكامل محمد لفخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ لتولي قيادة هذه الحملة على أهميتها، وذلك لما يُمثّله فخر الدين من مكانة كبيرة في الدولة، هذه المكانة التي تُعدّ امتداداً لمكانة أسرته التي حظيت برعاية السلاطين الأيوبيين منذ عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي.
- تركت هذه الحملة سمعة سيئة عن الدولة الأيوبية بين أهل مكة، وأمام الرأي العام الإسلامي، وذلك بسبب استباحتها لمكة عند دخولها لمدة ثلاثة أيام، أدت إلى أحداث كثيرة من القتل والسلب والنهب، توقفت عندها مصادر الدراسة، ووصفتها بالمقتلة الكبيرة.
- على الرغم من نجاح فخر الدين يوسف من دخول مكة واستعادتها إلى النفوذ الأيوبي، إلا أن الكامل محمد لم يكن راضياً عن مظاهر العنف التي اتبعها جنود الحملة عند دخولهم إلى مكة.
- عاقب الكامل محمد المتسبب الرئيس في استباحة المدينة المقدسة، وهو نائبه على مكة الأمير شجاع الدين طغتكين الكاملي بعزله عن منصبه واستدعائه إلى مصر.
- اعتبر الكامل محمد تحرك فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ من ينبع إلى مكة بصحبة طغتكين الكاملي دون الرجوع إليه تجاوزاً غير مقبول، ولذا غضب على فخر الدين لعدم استئذانه قبل تحرك الحملة من ينبع إلى مكة.
- تركت أحداث النهب والقتل التي قامت بها الحملة الأيوبية

شكل ١: خريطة الحجاز في العهد الأيوبي

آثاراً مهمة على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، إذ عمَّ الغلاء وعدمت الأقوات في مكة، فضلاً عن تأثر موسم الحج لهذا العام، إذ كانت مكة مسرحاً للصراع بين الأيوبيين والرسوليين خلال تلك المرحلة من تاريخها.

- تركت حالة الخوف الشديد والذعر الذي سببته الحملة في أهل مكة شعوراً سيئاً تجاه الدولة الأيوبية، مما دفعهم إلى إعلان الولاء إلى الدولة الرسولية في اليمن، فتسبب هذا في إطالة أمد الصراع بين الجانبين لفرض النفوذ على مكة لمدة طويلة لاحقة.

الإفصاح والتصريحات

تضارب المصالح: ليس لدى المؤلف أي مصالح مالية أو غير مالية ذات صلة للكشف عنها. المؤلفون يعلنون عن عدم وجود أي تضارب في المصالح.

الوصول المفتوح: هذه المقالة مرخصة بموجب ترخيص إسناد الإبداع التشاركي غير تجاري 4.0 الدولي(CC BY- NC 4.0) ، الذي يسمح بالاستخدام والمشاركة والتعديل والتوزيع وإعادة الإنتاج بأي وسيلة أو تنسيق، طالما أنك تمنح الاعتماد المناسب للمؤلف (المؤلفين) الأصليين. والمصدر، قم بتوفير رابط لترخيص المشاع الإبداعي، ووضح ما إذا تم إجراء تغييرات. يتم تضمين الصور أو المواد الأخرى التابعة لجهات خارجية في هذه المقالة في ترخيص المشاع الإبداعي الخاص بالمقالة، إلا إذا تمت الإشارة إلى خلاف ذلك في جزء المواد. إذا لم يتم تضمين المادة في ترخيص المشاع الإبداعي الخاص بالمقال وكان الاستخدام المقصود غير مسموح به بموجب اللوائح القانونية أو يتجاوز الاستخدام المسموح به، فسوف تحتاج إلى الحصول على إذن مباشر من صاحب حقوق الطبع والنشر. لعرض نسخة من هذا الترخيص، قم بزيارة: https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مراجع

إبراهيم، رجب عبدالجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، (القاهرة: دار الآفاق العربية، 1423هـ).

ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1427هـ/2006م).

الأصفهاني، محمد عماد الدين، الفتح القسي في الفتح القدسي،

(القاهرة: دار المنار، 1425هـ/2004م).

البركاتي، ناصر بن عبدالله: ''بنو رسول وعلاقتهم بالبيت الأيوبي والتنافس بينهم على العلاقة بالحجاز''، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية، مكة المكرمة: العدد 4، السنة (3)، 1411هـ/ 1991م.

ابن تغري بردي، يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 1991م).

ابن جبير، محمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، (بيروت: دار صادر، د.ت).

ابن الجَزِيري، عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر: الدُّرر الفرائِد المنظّمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظّمة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، ج1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ/2002م)

ابن الجوزي، عبدالرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1412هـ/1992م).

ابن حاتم، بدر الدين، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من العز باليمن، (د.م: دار أضواء السلف، 1973م).

الحموي، محمد ابن نظيف، التاريخ المنصوري، عني بنشره وتحقيقه: أبو العيد دودو، (دمشق: مطبعة الحجاز، 1401هـ/1981م).

الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، 1994م).

الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عني بتصحيحه: محمد بن علي الأكوع، ط2 (مصر: مطبعة الهلال، 1403هـ/1986م).

ابن خلكان، أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط4 (بيروت: دار صادر، د.ت).

الدواداري، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عاشور(القاهرة: القاهرة: عيسى البابي الحلبي، 1391هـ/1972م)

الذهبي، محمد بن يوسف، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408هـ/1988م).

ربيع، حسنين، ''البحر الأحمر في العصر الأيوبي''، السجل العلمي لندوة تاريخ البحر الأحمر، (القاهرة: جامعة عين شمس، 1979م).

رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: إلياس شاهين، (موسكو: دار التقدم، 1986م).

الرويضي، محمود محمد، والقطامين، عليا إبراهيم، ''سبط ابن الجوزي وأسلوبه ومنهجه في التأريخ للحروب الصليبية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت: العدد 108، السنة (27)، 2009م.

سالم، مساعد جابر، ''توظيف المتصوفة في عهد صلاح الدين الأيوبي لإرسال قواعد الحكم الأيوبي في مصر 567-589هـ/1171-1193م''، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت: العدد 154، السنة (39)، 2021م.

السالمي، عبد الحفيظ بن حمدي: الثورات الداخلية والحملات العسكرية الخارجية عل مكة المكرمة وأثرها على الأوضاع العامة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي (570-923هـ/ 1175-1517م)، الطائف: نادي الطائف الأدبي والثقافي، 1431هـ/ 2010م.

سبط ابن الجوزي، يوسف، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، 1371هـ/1952م).

السبكي، عبدالوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح الحلو، ط2 (د.م: هجر، 1413هـ/1992م).

أبو شامة، عبد الرحمن، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وضع حواشية علق عليه: إبراهيم شمس الدين، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ/2002م).

أبو شامة، عبد الرحمن، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (بيروت:

دار الكتب العلمية، 1422هـ/2002م)

ابن شداد، عز الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: أحمد أيبش، ط2، (دمشق: الأوائل، 2005م).

الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تحقيق: مجموعة محققين، (فسبادن: فرانز شتاين، 1974– 1997م).

العصامي، عبدالملك، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، (القاهرة: المكتبة السلفية، د.ت).

العلوي، بدر بن هلال (وآخران): المحاولات الصليبية لغزو الديار المقدسة في الحجاز والنتائج التي ترتبت عليها''، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية: العدد 102، مجلد (70)، 2020م.

الفاسي، تقي الدين أحمد بن محمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ/2000م).

الفاسي، محمد بن أحمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ط2 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1986م).

أبو الفدا، إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه: محمود أيوب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1997م).

ابن فهد، النجم عمر، إتحاف الورى، تحقيق: وتقديم: فهيم محمد شلتوت، ط2، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2005م).

الكتبي، محمد، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ت).

ابن المجاور، يوسف بن يعقوب، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، تحقيق: ممدوح حسن محمد، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت).

محمود، رزق، ''العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى واقعة حطين''، (رسالة دكتوراه غير منشورة).

المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1994م).

المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، (لندن: مؤسسة الفرقان الإسلامي، 2003م).

النويري، أحمد بن علي، نهاية الأرب في تاريخ الأدب، تحقيق: مجموعة محققين، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1994م).

ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرون، (القاهرة: دار القلم، د.ت).

ابن الوردي، عمر، تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، (بيروت: دار المعرفة، 1389هـ/1970م).

اليونيني، محمد بن موسى، ذيل مرآة الزمان، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1413هـ/1992م).

References

Abū al-Fidā, Ismā'īl, al-Mukhtaṣar fī Akhbār al-bashar, 'allaqa 'alayhi wa-waḍa'a ḥawāshīhi : Maḥmūd Ayyūb, (Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, 1417h / 1997m).

Abū Shāmah, 'Abd al-Raḥmān, Kitāb al-rawḍatayn fī Akhbār al-dawlatayn al-Nūrīyah wa-al-Ṣalāḥīyah, waḍ' ḥawāshiyahu 'allaqa 'alayhi : Ibrāhīm Shams al-Dīn, Ṭ1 (Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, 1422h / 2002M).

Abū Shāmah, 'Abd al-Raḥmān, tarājim rijāl al-qarnayn al-sādis wa-al-sābi' al-ma'rūf bāldhyl 'alá al-rawḍatayn, taḥqīq : Ibrāhīm Shams al-Dīn, (Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, 1422h / 2002M)

Al-'Alawī, Badr ibn Hilāl (w'ākhrān) : "al-Muḥāwalāt al-Ṣalībīyah li-ghazw al-diyār al-Muqaddasah fī al-Ḥijāz wa-al-natā'ij allatī trtbt 'alayhā", Majal-lat Kullīyat al-Ādāb, Jāmi'at al-Iskandarīyah : al-'adad 102, mujallad (70), 2020m.

Al-Barakātī, Nāṣir ibn Allāh : "Banū Rasūl wa-'alāqātuhum bi-al-Bayt al-Ayyūbī wa-al-tanāfus baynahum 'alá al-'alāqah bi-al-Ḥijāz", Majal-lat Jāmi'at Umm al-Qurá lil-Buḥūth al-'Ilmīyah, Makkah al-Mukarramah : al-'adad 4, al-Sunnah (3), 1411h / 1991m.

Al-Dhahabī, Muḥammad ibn Yūsuf, Tārīkh al-Islām, taḥqīq : Bashshār 'Awwād Ma'rūf wa-ākharūn, (Bayrūt : Mu'assasat al-Risālah, 1408h / 1988m).

atharuhā 'alá al-Awḍā' al-'Āmmah khilāl al-'aṣrayn al-Ayyūbī wa-al-Mamlūkī (570-923h / 1175-1517m), al-Ṭā'if : Nādī al-Ṭā'if al-Adabī wa-al-thaqāfī, 1431h / 2010m.

Al-Subkī, 'Abd-al-Wahhāb, Ṭabaqāt al-Shāfi'īyah al-Kubrá, taḥqīq : Maḥmūd Muḥammad al-Ṭanāḥī w'bdālftāḥ al-Ḥulw, ṭ2 (D. M : Hajar, 1413h / 1992m).

Al-Yūnīnī, Muḥammad ibn Mūsá, Dhayl Mir'āt al-Zamān, (al-Qāhirah : Dār al-Kitāb al-Islāmī, 1413h / 1992m).

Ibn al-Athīr, 'Izz al-Dīn, al-kāmil fī al-tārīkh, taḥqīq : 'Umar 'Abdussalām Tadmurī, (Bayrūt : Dār al-Kitāb al-'Arabī, 1427h

Ibn al-Jawzī, 'Abd-al-Raḥmān, al-muntaẓim fī Tārīkh al-mulūk wa-al-umam, taḥqīq : Muḥammad 'Abd-al-Qādir 'Aṭā, Ṭ1 (Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, 1412h / 1992m).

Ibn aljazīry, 'Abd-al-Qādir ibn Muḥammad ibn 'Abd-al-Qādir : alddurr alfrā'id almnẓẓmh fī Akhbār al-ḥajj wa-ṭarīq Makkah alm'ẓẓmh, taḥqīq : Muḥammad Ḥasan Ismā'īl, j1, (Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, 1422h / 2002M)

Ibn al-mujāwir, Yūsuf ibn Ya'qūb, Ṣifat bilād al-Yaman wa-Makkah wa-ba'ḍ al-Ḥijāz al-musammāh Tārīkh al-Mustabṣir, taḥqīq : Mamdūḥ Ḥasan Muḥammad, (al-Qāhirah : Maktabat al-Thaqāfah al-dīnīyah, D. t).

Ibn al-Wardī, 'Umar, Tatimmat al-Mukhtaṣar fī Akhbār al-bashar al-ma'rūf bi-tārīkh Ibn al-Wardī, taḥqīq : Aḥmad Rif'at al-Badrāwī, (Bayrūt : Dār al-Ma'rifah, 1389h / 1970m).

Ibn Fahd, al-Najm 'Umar, Itḥāf al-wará, taḥqīq : wa-taqdīm : Fahīm Muḥammad Shaltūt, ṭ2, (al-Qāhirah : Maktabat al-Khānjī, 2005m).

Ibn Ḥātim, Badr al-Dīn, alsmṭ al-Ghālī al-thaman fī Akhbār al-mulūk min al-'Izz bi-al-Yaman, (D. M : Dār Aḍwā' al-Salaf, 1973m).

Ibn Jubayr, Muḥammad, Tadhkirat bāl'khbār 'an it-tifāqāt al-asfār, (Bayrūt : Dār Ṣādir, D. t).

Ibn Khallikān, Aḥmad, wafayāt al-a'yān w'nbā' abnā' al-Zamān, taḥqīq : Iḥsān 'Abbās, ṭ4 (Bayrūt : Dār Ṣādir, D. t).

Ibn Shaddād, 'Izz al-Dīn, al-Nawādir al-sulṭānīyah wa-al-maḥāsin al-Yūsufīyah, taḥqīq : Aḥmad Ībish, ṭ2, (Dimashq : al-Awā'il, 2005m).

Ibn tghry Bardī, Yūsuf, al-nujūm al-Zāhirah fī mulūk

Aldwādāry, Ibn Aybak aldwādāry, Kanz al-Durar wa-jāmi' al-ghurar, taḥqīq : Sa'īd 'Āshūr (al-Qāhirah : al-Qāhirah : 'Īsá al-Bābī al-Ḥalabī, 1391h / 1972m)

Al-Fāsī, Muḥammad ibn Aḥmad, al-'Iqd al-thamīn fī Tārīkh al-Balad al-Amīn, taḥqīq : Fu'ād Sayyid, ṭ2 (Bayrūt : Mu'assasat al-Risālah, 1406h / 1986m).

Al-Fāsī, Taqī al-Dīn Aḥmad ibn Muḥammad, Shifā' al-gharām bi-akhbār al-Balad al-Ḥarām, (Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, 1421h / 2000M).

Al-Ḥamawī, Muḥammad Ibn Naẓīf, al-tārīkh al-Manṣūrī, 'uniya bi-nashrihi wa-taḥqīqihi : Abū al-'Īd Dūdū, (Dimashq : Maṭba'at al-Ḥijāz, 1401h / 1981M).

Al-Ḥamawī, Yāqūt ibn Allāh, Mu'jam al-buldān, (Bayrūt : Dār Ṣādir, 1994m).

Al-'Iṣāmī, 'bdālmlk, Simṭ al-nujūm al-'awālī fī abnā' al-Awā'il wa-al-tawālī, (al-Qāhirah : al-Maktabah al-Salafīyah, D. t).

Al-Khazrajī, 'Alī ibn al-Ḥasan, al-'uqūd al-lu'lu'īyah fī Tārīkh al-dawlah al-Rasūlīyah, 'uniya bi-taṣḥīḥihi : Muḥammad ibn 'Alī al-Akwa', ṭ2 (Miṣr : Maṭba'at al-Hilāl, 1403h / 1986m).

Al-Kutubī, Muḥammad, fawāt al-wafayāt wāldhyl 'alayhā, taḥqīq : Iḥsān 'Abbās, (Bayrūt : Dār Ṣādir, D. t).

Al-Maqrīzī, Aḥmad ibn 'Alī, al-mawā'iẓ wa-al-i'tibār fī dhikr al-Khiṭaṭ wa-al-āthār, taḥqīq : Ayman Fu'ād Sayyid, (Landan : Mu'assasat al-Furqān al-Islāmī, 2003m).

Al-Maqrīzī, Aḥmad ibn 'Alī, al-sulūk li-ma'rifat duwal al-mulūk, taḥqīq : Muḥammad Muṣṭafá Ziyādah, (al-Qāhirah : Dār al-Kutub al-Miṣrīyah, 1994m).

Al-Nuwayrī, Aḥmad ibn 'Alī, nihāyat al-arab fī Tārīkh al-adab, taḥqīq : majmū'ah mḥqqyn, (al-Qāhirah : Dār al-Kutub al-Miṣrīyah, 1994m).

Al-Ruwayḍī, Maḥmūd Muḥammad, wālqtāmyn, 'ulyā Ibrāhīm, "Sibṭ Ibn al-Jawzī wa-uslūbuhu wa-manhajuhu fī al-ta'rīkh lil-ḥurūb al-Ṣalībīyah, al-Majallah al-'Arabīyah lil-'Ulūm al-Insānīyah, al-Kuwayt : al-'adad 108, al-Sunnah (27), 2009M.

Al-Ṣafadī, Ṣalāḥ al-Dīn, al-Wāfī bi-al-Wafayāt, taḥqīq : majmū'ah mḥqqyn, (fsbādn : Frānz shtāyn, 1974-1997m).

Al-Sālimī, 'Abd al-Ḥafīẓ ibn Ḥamdī : al-thawrāt al-dākhilīyah wa-al-ḥamalāt al-'askarīyah al-khārijīyah 'ala Makkah al-Mukarramah wa-

Ayyūbī", al-Sijill al-'Ilmī li-Nadwat Tārīkh al-Baḥr al-Aḥmar, (al-Qāhirah : Jāmi'at 'Ayn Shams, 1979m).

Rnsymān, Stephen, Tārīkh al-ḥurūb al-Ṣalībīyah, tarjamat : Ilyās Shāhīn, (Mūskū : Dār al-Taqaddum, 1986m).

Sālim, Musā'id Jābir, "Tawẓīf al-mutaṣawwifah fī 'ahd Ṣalāḥ al-Dīn al-Ayyūbī l'rsāl Qawā'id al-ḥukm al-Ayyūbī fī Miṣr 567-589h / 1171-1193m", al-Majallah al-'Arabīyah lil-'Ulūm al-Insānīyah, al-Kuwayt : al-'adad 154, al-Sunnah (39), 2021m.

Sibṭ Ibn al-Jawzī, Yūsuf, Mir'āt al-Zamān fī Tārīkh al-a'yān, (Ḥaydar Ābād : Dā'irat al-Ma'ārif al-'Uthmānīyah, 1371h / 1952m).

Miṣr al-Qāhirah, taḥqīq : Muḥammad Ḥusayn Shams al-Dīn (Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, 1991m).

Ibn Wāṣil, Muḥammad ibn Sālim, Mufarrij al-kurūb fī Akhbār Banī Ayyūb, taḥqīq : Jamāl al-Dīn al-Shayyāl wa-ākharūn, (al-Qāhirah : Dār al-Qalam, D. t).

Ibrāhīm, Rajab Abdoldjavad, al-Mu'jam al-'Arabī li-asmā' al-Malābis, (al-Qāhirah : Dār al-Āfāq al-'Arabīyah, 1423h).

Maḥmūd, Rizq, "al-'Alāqāt bayna arnāṭ Amīr Ḥiṣn al-Karak wa-Ṣalāḥ al-Dīn al-Ayyūbī ḥattá wāqi'at Ḥiṭṭīn", (Risālat duktūrāh ghayr manshūrah).

Rabī', Ḥasanayn, "al-Baḥr al-Aḥmar fī al-'aṣr al-